

ذات الصواري

رسوم
إبراهيم سمرة

بقلم
عبد الحميد عبد المقصود



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع

١ شارع دانيال سنان بالعجينة - القاهرة - ١١٥١٢٢٢

يقولُ عَنْهَا الْمُؤَرِّخُونَ إِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَعَارِكِ الْبَحْرِيَّةِ عَلَى
مَرِّ الْعُصُورِ ، وَيُضَيَّفُ آخَرُونَ أَنَّهَا أَقْوَى مَعْرَكَةٍ شَهِدَهَا الْبَحْرُ
الْأَبْيَضُ الْمُتَوَسِّطُ مِنْذُ وَقَعَةِ أَكْتِيُومِ الشَّهِيرَةِ عَامَ ٣١ ق. م. .
هِيَ ذَاتُ الصَّوَارِي ، الْمَعْرَكَةُ الْبَحْرِيَّةُ الْكُبْرَى الَّتِي جَرَتْ
عَامَ ٦٥٥ م بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بِقِيَادَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ وَقَوَاتِ
الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ بِقِيَادَةِ قُسْطَنْطِينَ بْنِ هِرَقْلَ .
وَقَدْ نُسِجَتْ أَحْدَاثُ تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ قَبْلَ خُدُوثِهَا بِوَقْتٍ طَوِيلٍ ،



وَذَلِكَ عِنْدَمَا تَقْدُمُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَالْيَ
الشَّامَ إِلَى خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ،
يَطْلُبُ مِنْهُ إِعْدَادَ حَمَلَةٍ بِحَرِيَّةٍ
كُبْرَى لِفَتْحِ جَزِيرَتِي
قَبْرُصَ وَرُودُسَ .



وَفَكَرَ عُثْمَانُ طَوِيلًا فِي هَذَا الطَّلَبِ ، فَفِي عَامِ ٦٤٨مَ وَقَتَ
أَنْ تَقْدَمَ مُعَاوِيَةُ بِطَلْبِهِ ، لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ خَبِيرَةٌ كَافِيَةٌ بِقُنُونِ
الْقِتَالِ فِي الْبَحْرِ ، وَمِنْ ثَمَّ خَافَ عُثْمَانُ مِنْ تِلْكَ الْمَغَامَرَةِ ،
وَقَالَ لِمُعَاوِيَةَ : إِنَّنِي أَوَافِقُ بِشَرْطِ عَدَمِ إِجْبَارِ أَحَدٍ عَلَى رُكُوبِ
الْبَحْرِ ، وَيَقْتَصِرُ الْأَمْرُ فَقَطْ عَلَى الْمُتَطَوِّعِينَ الرَّاغِبِينَ مِنْ جُنْدِ
الْمُسْلِمِينَ .



وعلى الفور بدأ معاوية بن أبي سفيان يُجهز حملته ، فقام
بجمع فريق ضخم من الصُّنَّاع المَهَرَّة ، ليصنعوا السُّننَ المَطْلُوبَةَ .
ثم أعلن عقب ذلك نفيِرَ الحَرْبِ وطلبَ مُتَطَوِّعِينَ لأداءِ تلكِ
المُهمَّةِ الصَّعْبَةِ .



وَكَانَتْ الْمَفَاجَأَةُ الْكُبْرَى الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُهَا أَحَدٌ ، هِيَ
تِلْكَ الْأَعْدَادُ الْهَائِلَةُ مِنَ الْمُتَطَوِّعِينَ الَّتِي جَاءَتْ تَطْلُبُ
الِاشْتِرَاكَ فِي الْحَمْلَةِ ، جُمُوعٌ غَفِيرَةٌ تَوَالَتْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
لِتَكْتَمِلَ الْأَعْدَادُ الْمَطْلُوبَةُ لِلْحَمْلَةِ فِي وَقْتٍ وَجِيزٍ ، وَعَلَى
الْفَوْزِ بِدَأِ التَّدْرِيبِ وَالْإِعْدَادِ .

ثُمَّ قَرَّرَ مُعَاوَةَ خُرُوجَ الْحَمْلَةِ تَحْتَ قِيَادَةِ الْقَائِدَيْنِ : أَبِي قَيْسٍ
الْحَارِثِيِّ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ ، وَهُمَا مِنْ قَادَةِ الْمُسْلِمِينَ
الْأَبْطَالِ .



وَأَبْحَرَتْ مَرَاكِبُ الْمُسْلِمِينَ تَحْمِلُ الْعُدَّةَ وَالْعَتَادَ صَوْبَ
قُبْرَصَ ، وَعِنْدَ مَشَارِفِهَا بَرَزَتْ مَرَاكِبُ الْبِيزَنْطِيِّينَ لَتَتَصَدَّى
لِهَذَا الْهَجُومِ الْبَحْرِيِّ الْكَبِيرِ الَّذِي يُنْظِمُهُ الْمُسْلِمُونَ .



فَقَدْ كَانَ الْبِيزَنْطِيُّونَ هُمْ سَادَةُ الْبَحْرِ وَمُلُوكُهُ آنَ ذَاكَ ، وَمِنْ
الْخَطُورَةِ بِمَكَانٍ ظُهُورُ أَى قُوَّةٍ بَحْرِيَّةٍ أُخْرَى عَلَى مَسَرِّحِ الْأَحْدَاثِ .
مِنْ هُنَا حَشَدُ الْبِيزَنْطِيِّونَ أَكْبَرَ حَشَدٍ بَحْرِيٍّ لِلرَّدِّ عَلَى حَمَلَةِ
الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيٍّ وَصَدَّهَا .

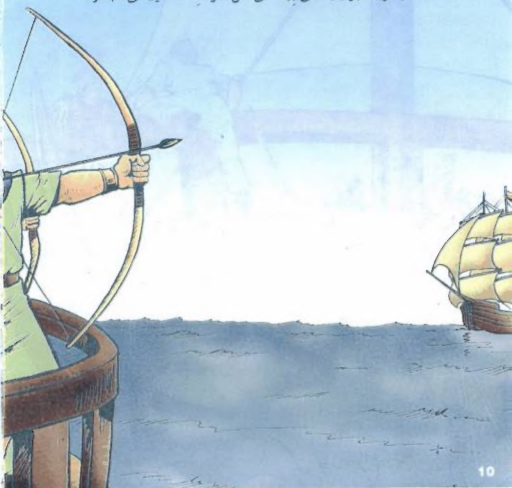
وَتَدَوَّرَ الْحَرْبُ سِجَالًا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ فَيُسْتَشْهِدُ الْقَائِدُ أَبُو قَيْسٍ
الْحَارِثِيُّ ، وَيُكْمِلُ الْمَعْرَكَةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَرِّحٍ ، إِلَى أَنْ
يَنْتَصِرُ جُنْدُ الْمُسْلِمِينَ فِي النِّهَايَةِ وَيَتِمُّ فَتْحُ جَزِيرَةِ قُبْرَصَ .





ومنها تَنْتَقِلُ جيوشُ المُسْلِمِينَ بِكَافَةِ مُعَدَّاتِهَا صَوْبَ جَزِيرَةِ
رُودَسَ لِفَتْحِهَا هِيَ الْآخَرَى .

إِلَّا أَنَّهُ بَعْدَ هَذَا الْفَتْحِ ثَارَتْ ثَائِرَةٌ الْبِيزَنْطِيِّينَ ، فَأَعْلَنَ
قُسْطَنْطِينُ بْنُ هِرَقْلَ الْقَائِدُ الْبِيزَنْطِيُّ الشَّهِيرُ - أَنَّهُ سَوْفَ يُجْهِّزُ
حَمْلَةً بَحْرِيَّةً كُبْرَى يَقْضِي بِهَا عَلَى كُلِّ نَفُوذٍ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْبَحْرِ .





وبالفعل أعدَّ القائدُ البيزنطيُّ حملةً من ستمائة سفينة ، وقاد
الحملة بنفسه في عرض البحر المتوسط . وعلى الطرف
المقابل تقدم القائدُ المسلمُ عبدُ الله بنُ أبي سرح بمائتي
سفينة ، ليلتقي الطرفان عند منطقة قريبة من شواطئ
الإسكندرية .

ثمانية سفينة تقتلُ وجهاً لوجه في أكبر معركة بحرية
يشهدها التاريخ الإسلامي .



بَدَأَتْ الْجَوْلَةُ الْأُولَى بِتَبَادُلِ السَّهَامِ . كُلٌّ يَنْحِينُ الْفُرْصَةَ مِنْ
بَعِيدٍ لِاصْطِيَادِ خَصْمِهِ ، وَاسْتَمَرَ الْحَالُ هَكَذَا ، إِلَى أَنْ أَنْهَى كُلُّ
فَرِيقٍ مَخْزُونُهُ مِنَ السَّهَامِ . وَهَذَا بَدَأُ الْمُسْلِمُونَ جَوْلَتَهُمْ
الثَّانِيَةَ ، فَاتَّجَهُوا نَاحِيَةَ سَفْنِ عَدُوِّهِمْ وَالصَّقُوا سَفْنَهُمْ بِهَا ،
لِتَنْحَوِلَ السَّفْنُ جَمِيعًا إِلَى سَاحَةِ مُتَّصِلَةٍ ، لَا تَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنْ
سَاحَةِ آيَةِ مَعْرَكَةِ بَرِّيَّةٍ أُخْرَى .



وتلتحم الصّواري جميعها مُكونة تشكيلاً ضخماً جعل
الجُيُوع يندرزون به ويطلقون أسسه على المعركة لتسبى بـ « ذات
الصّواري » أى المعركة التى اشترك فيها عدد كبير من صواري
المراكب المُنتشرة .

ويضع السُّلُتُون فى اعتبارهم أن هذه المعركة هى أصعب
احتبار لهم وعلى أساسه يُمكن أن تنسج الدّولة الإسلامية
لتتصد من نهر جيحون شرقى فارس إلى المحيط الأطلسى
على الساحل الغربى لبلاد المغرب ، ومن المحيط الهندى
جنوباً إلى بلاد القوقاز وبحر قزوين والبحر
الأسود شمالاً .





ويُدَوِّرُ الْقِتَالَ بِالسُّيُوفِ وَالْحَنَاجِرِ وَالْحَرَابِ إِلَى أَنْ يَتَحَوَّلَ لَوْنُ
الْبَحْرِ إِلَى اللَّوْنِ الْأَحْمَرِ مِنْ كَثْرَةِ الدَّمَاءِ الَّتِي تَخْتَلِطُ بِمِيَاهِهِ .
وَيَدْرِكُ الْقَائِدُ الْبِيزَنْطِيُّ قُسْطَنْطِينَ أَنْ قُوَّاتِهِ - مَعَ كَثْرَةِ
عَدَدِهَا - قَدْ انْهَزَمَتْ وَخَسِرَتِ الْكَثِيرَ مِنْ سَفِينِهَا وَمُعَدَّاتِهَا
فَيَقْفِزُ إِلَى مَرَكَبٍ صَغِيرٍ



يَهْرُبُ بِهِ إِلَى صَقْلِيَّةَ ، إِلَّا أَنَّهُ يُقْتَلُ هُنَاكَ عَلَى أَيْدِي أَهْلِهَا
الَّذِينَ عَاقَبُوهُ عَلَى هَزِيمَتِهِ وَهَرَبِهِ .



وَيَقْتُلُ قُسْطَنْطِينَ تَنْهَارُ الْقُوَاتُ الْبِيزَنْطِيَّةُ الْبَاقِيَةُ وَيَسْتَسْلِمُ
مُعْظَمُهَا .

فَيُكْمَلُ الْمُسْلِمُونَ الْمَعْرَكَةَ حَتَّى النَّصْرَ ، لِتُصْبِحَ لَهُمْ سِيَادَةُ
الْبَحْرِ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ يَتَجَهَّوْنَ فِيهِ نَحْوَ أَيِّ مَكَانٍ دُونَ عَائِقٍ أَوْ
حَدٍّ يَحْدُثُهُمْ .





رقم الإصدار : ٢٦٦

الزواجر الموزون : ٧ - ٢٦٤ - ٢٦٦ - ٢٧٧

